# واقع الفلسفة في الجزائر

الدكتور. يوسف زرافة

قسم الفلسفة. جامعة الجزائر2

Dr.zerafayoucef@gmail.com

**الملخص :**

الفلسفة في الجزائر تعيش مدا و جزرا مثلها في ذلك مثل ما يجري في دول الجوار، ولم تكن الفلسفة حدثا طارئا بل كانت وليدة تفاعلات عدة على مر العصور، علت طورا وتدحرجت أطوارا عدة، ومع هذا الوضع المتردي والمختل،هل بإمكان الفلسفة أن تعلو من جديد وأن يرتفع شأنها بين المباحث الأخرى، أملا أن تحقق لأهلها تقدما حضاريا لائقا بهم وبتاريخهم المجيد والجزائر لها كامل الحق في أن تطمح مثل غيرها من الأمم في أن تزدهر وهو أمل فلسفي كبير في طريق الفكر.

**الكلمات الدالة** : فلسفة،حضارة، تهافت،سلطة، فكر، بحث.

عاشت الفلسفة دوما متأرجحة بين السماء والأرض وهي لم تكن يوما عالما أرضيا واضح المسالك، كما لم تكن عالما خالصالمن ترفعوا عن عوالمهم، إنها بين هذا وذاك، هي الفلسفة التي أبت أن تكون إلا عالما خاصا، ومسارا خاصا، أسست لها منابر ومقامات، لم تكن متاحة لكل الناس ومنذ العصور القديمة قطعت الفلسفة أشواطا كبيرة في بسط سلطانها الذي مازال يتمادى رغم الانحصار الذي مسها في مباحثها خاصة.

(ليست الفلسفة محبوبة اليوم لأنها فقدت روح المغامرة،ذلك أن ظهور العلوم المفاجئ استلب منها واحدا بعد الآخر عوالمها القديمة الشاسعة... ولم يبق لها إلا قمم الميتافيزيقا الباردة، وألغاز الأبستمولوجيا - نظرية المعرفة – الصبيانية، و نزاع أكاديمي حول أخلاق فقدت كل أثرها على الإنسانية.)[1]

لقد كان للمصريين القدماء فكرهم وفلسفتهم، وكان كتاب الأموات ولوحات البردي خير شاهد على ذلك، رغم أنها ظلت متداولة على نطاق ضيق جدّا، ولم يؤذن لغير الكهنة بإخراجها من مراكز القرارات السرية.

والبابليون كذلك كان لهم فكرهم و فلسفتهم، وبغض النظر عن كون ذلك أسطوريا خالصا، فلقد اهتدى إليه البابليون وقدسوه، إذ أنشأت خاصتهم قانونا ما زال خالد الذكر إلى اليوم.

وكان الحال نفسه مع زرادشت ومانو، بل إن بعض المؤرخين ينقل تأثير المانوية إلى شخص القديس أو غسطينوسبن طاغست نفسه،وذلك في بداياته الفكرية : ( كان أوغسطين متشبعا بالأدب اللاتيني فلم تعجبه لاتينية الكتاب، وكان متعلقا بالدنيا ومتاعها فلم تهزه مبادئه، على أنه ظن أنه وجد ضالته في المانوية، فانضم إليها وهو يعتقد أنه مازال مسيحيا كأمه .) [2]

إن تموضع العوالم الفلسفية يبدو جليا أكثر لدى الهنود وهم بذلك أحق لما فيهم من تميز بين الخاصة والعامة وتأكيد ما بينهما من مقامات فكرية واجتماعية وسياسية، والفلسفة لم تكن يوما لتقدم على أنها نشاط ملزم لعامة الناس. ( وتتصف الفلسفة الهندية بموقفها وتقربها الباطنيين من الحقيقة، فالفلسفة هي معرفة الذات. وتنطلق هذه الفلسفة من العالم الخارجي، أو من العالم الداخلي لطبيعة الإنسان المادية. الفطرية، اي من ذات الإنسان. وفي سيرها لبلوغ الحقيقة تخضع الفلسفة الهندية لحياة الإنسان الداخلية أكثر مما تخضع للعالم الخارجي وللطبيعة.) [3]

والصين العظيمة لم تكن لتقل أهمية عما ظهر خلف جبال الهيمالايا رغم ما أحدثته البوذية من تواصل، إلا أن لا وتزو وكونفوشيوس وما وتزو أعطوا للصين بصمتها الخاصة. ومع ذلك ( يعود الفضل إلى بوذا في وضع حد نهائي لهذا التركيب الخاطئ الذي كان يضمن سيطرة البراهمة فهو يترك المؤمنين عرضة لأهوال الحلقة الشيطانية للولادة و الموت .) [4]

ولدى اليونان تبدلت الفلسفة وظهرت كممارسة يومية لدى سقراط، السوقة والأغفال انتصروا عليه و كان من ذلك أن بنى لها أفلاطون صرحا في حديقة أكادي موس عرف بالأكاديمية، ولم يكن الحال ليشذ مع عقل الأكاديمية أرسطو طاليس حين اتخذ لنفسه رواقا داخل حديقة أبولون لقيوص وهو ما سيعرف لاحقا باللوقيون، كل ذلك ينبئ بما كان للفلسفة من خصوصية لا تقبلها الفئة التي غالبا ما تتنصر على من يشتغلون بالفلسفة : (يعتقد أفلاطون، مثله مثل سقراط، اعتقادا جازما برسالة الفيلسوف الاجتماعية . فبعد أن يرسم في الجمهورية نظام المدينة المثالية، يتساءل عن ماهية الشرط الذي يتيح لنظام مقارب أن يشق طريقه إلى الواقع : وعنده أنه يكفي لذلك تغيير واحد، لكن ما هو بالطفيف ولا بالسهل، وإن يكن ممكنا ..و هو أن يصير الفلاسفة ملوكا في المدن .) [5]

وجرى الحال في العصور الوسطى على نفس المنوال، بل تدخلت سلطة الكنيسة في الآمر وحرمت الإشغال بالفلسفة، ولم تستثن من ذلك إلا القلة ممن عدوا فرسانا لعقيدة المسيح والذين لا يشق لهم غبار.

وإن جاءت العصور الوسطى المسيحية متأخرة عما جاء في عصور ازدهار حضارة الإسلام إلا أن ما ساد ما كان ليختلف عن حال الفلسفة في العصور المسيحية حيث عدت من العلم المضنون به على غير أهله وحرم الاشتغال بها في بعض الحالات وشرد أهلها، وما قصة التهافت و تهافت التهافت إلا دليل يغني عن كل تحليل. وجاءت العصور الحديثة وأبقت على تلك الخصوصية، ولم تزل الفلسفة غير متيسرة للعامة.

والعالم الإسلامي كغيره من العوالم المنتشرة من حوله انخرط في النشاط الفكري والفلسفي، وانتقل من الخصوصية إلى العالمية بسرعة مذهلة بفضل ما هيأه علم الكلام من آليات للتداخل والتقاطع مع الفلسفة، وظهر تباين بين المشرق والغرب، من خلال تعدد المركز، وتجلى ذلك أكثر في نموذج انتصار التهافت على تهافت التهافت ◆◆◆ حيث حول الفيلسوف المكلف من قبل سلطة

زمانه والذي صار يلقب بالشارح الأكبر لدى مؤسسة فلسفية أخرى تنتمي إلى عالم آخر، إلى مجرد مفكر مارق متطع لم يستسغ الواقع المجتمعي الذي ينتمي إليه.

والحديث عن ابن رشد حديث ملئ بالتأمل والأسى، وحتى ولو لقب بالشارح الأكبر- عند تقاطع مع عالم فلسفي آخر- كان ذلك على يد القديس توماس الإكويني.( وقد اختلفت الآراء في تعليل تلك المحنة التي نزلت بابن رشد في أواخر حياته السياسية والعلمية، فمن الناس من يقول : إن سبب هذه النكبة يرجع إلى أن ابن رشد لم يكن فطنا ولا حصيفا عندما أظهر شدة ولائه ومحبته لأخي المنصور الذي كان واليا على قرطبة، ومنهم من قال : إن ذلك يرجع إلى رفعه الكلفة في حديثه مع المنصور ... ،ونعتقد أن السبب هو التنافس السياسي بين فريق الفقهاء وفريق العلماء والفلاسفة.) [6]

إن الوضع الفلسفي الراهن في الجزائر التي هي جزء من مغرب الحضارة الإسلامية، قد تأثر أيما تأثر من هاته الصدمة المتولدة عن ذلك السباق غير المتكافئ الذي انتصر فيه التهافت وصاحبه، وقد يتساءل الواحد منا :

أي أفق نريده للفلسفة في بلادنا، وأي نوع من التفلسف نريد، وهل العودة إلى هاته الجذور الفلسفية ضرورية للإجابة على ذلك ؟

مما لا شك فيه أن مأساة ابن رشد ما زالت تخيم بظلالها على الواقع المجتمعي في دول المغرب العربي والدول الإسلامية جنوب الصحراء، لأن أبا حامد الغزالي لم يكن بحاجة إلى معركة فلسفية بالمغرب بالقدر الذي كان فيه ينشد صدى الانتصار الذي حققه في المشرق، وحل التصوف الذي يمكن وصفه بالديني محل كل نظر فلسفي لا يؤكد المرجعيات التي قام عليها جهد الغزالي المنتصر، ولمتفلح التجاوزات التي احدثها ابن خلدون في تخطي ذلك.

إن آثار كل ذلك بادية اليوم كإشكال فلسفي مطروح، ولكن هل يكفي ذلك لنجيب عن تساؤلنا عن أي فلسفة نريد؟

إن الجزائر المستقلة قد ورثت تركة ثقيلة من التفاعلات سلبية القيمة على مستوى التراكمات المعرفية والفلسفية، وهي لا تزال تنشد الخلاص العلمي الكيفي والكمي، وإن كان للعلم تراكمات فإن ذلك لا يكون إلا حين تتوفر القاعدة الحائزة على أدنى شروط احتضان الفعل العلمي المبدع، إن مجرد التفكير في ذلك قد يضعنا في الطريق الصحيح الموصل إلى البحث عن الصدمة الإيجابية فلسفيا، ولكن هل تكفي الصدمة الفلسفية ؟

لقد قيل أن للدهشة دورا في الفعل الفلسفي، كان ذلك في الماضي، حيث رتابة الحياة واتساق أنماط العيش والحدود الفاصلة بين هاته الطبقة وتلك عموما وبين الذي يدرك والذي لا يدرك خصوصا، أما الآن فهل يمكن لفعل الصدمة الفلسفية أن يقع مثلا ؟

إن فعل الصدمة كفعل مستوحى من علم الفيزياء المتناهية في الصغر أو اللامتناهية في الكبر، هو فعل يحتاج إلى طرفين صادم ومصطدم به، أما في الفلسفة ؛ فعلينا أن نختار إما أن نكون صادمين أو مصطدم بهم. أما ونحن صادمون فعلينا أن نختار الوجهة إما الأنا أو الآخر؟

إن الأنا هنا يصبح صادما ومصدوما لا مصطدما به، وهي عملية قد تدخل في باب النقد الذاتي الذي يساعد على تخطي صعاب أو مواجهة أمور طارئة.

إن الصدام مع الأنا لا يعدو أن يكون مجرد نقد ذاتي أو هو مواجهة للانا مع ذاتها، إنها لحظة انكشاف أمام مرآة التاريخ الخالية من أدران التراكم الحسي والانفعالي عبر الزمن، ولكن هل يمكن استعادة الأنا المتواري عن الأنظار بمجرد استعادة الماضي ؟

بكل تأكيد سيكون ذلك مجرد حلم ممزوج بشي من الجنون، لأن التوافق سيكون منعدما بين العلم الحاصل والعمل المنشود في المستقبل لسبب واضح وهو اضطرابية الحاضر وضبابتيه فلسفيا.

والصدام مع الآخر يولد في الأنا تفاعلا سلبيا وإيجابيا في الآن نفسه، علما بما فيه للغلبة من أثر ، يقول ابن خلدون" إن المغلوب مولع بتقليد الغالب في زيه وملته ونحلته و سائر عوائدهٌ "، ولكن في أي موضع نحن، هل نحن في موضع الغالب ؛ أم في موضع المغلوب ؟ سؤال ملح ولكن الإجابة عنه قد تتأخر.

إن تحقق الفعل الفلسفي - التفلسفي- ؛ يمكن له أن يصبح ممكنا إذا وقع إدراك لكل ذلك، وقع إدراك للذات بآنيتها وعرفت حق المعرفة من هم محيطون بها، والجزائر تملك اليوم شروطا لم تتوفر لها من قبل يمكن لها أن تساهم في إحداث انطلاقة فلسفية بها، وحتى يكون ذلك يجب توفير جملة شروط منها:

1 - ربط الحاضر الفلسفي بماضيه دون خجل أو وجل والسعي إلى تفهم الإشكاليات الفلسفية التي طرحت في ذلك الزمن، أملا في معرفة صيغة اصطلاحية أو توافقية كانت قد حصلت.

2 - تحديث الحاضر الفلسفي بمد الجسور مع أقطاب الفعل الفلسفي لدى الأمم الأخرى سواء في الجوار القريب جغرافيا أو البعيد لأن التفلسف فعل إنساني.

3 - توجيه التحديث وفق آلية تساعد على انفتاح الفعل الفلسفي على الواقع المجتمعي حتى يتحقق إجماع لدى المهتمين لأمر الفلسفة بضرورة حضورها في المجتمع.

4- الانخراط المباشر في جهود دول الجوار في تحيين الأولويات الاقتصادية، والاجتماعية و الثقافية .

إن أجيال الاستقلال في الجزائر المعاصرة يمكن أن تكون لها مكانة فلسفية إن هي بادرت لبعث شروط التفلسف والتي هي ليست بالشروط الخفية أو السحرية أو العدمية.

لقدآمن أبو نصر الفارابي بأن الفلسفة ترحل حيث ترحل الحضارة. فهلا أعدنا الحضارة حتى تعود إلينا الفلسفة؟

(كان في القديم في الكلدانيين وهم أهل العراق ثم صار إلى أهل مصر ثم انتقل إلى اليونانيين ولم يزل إلى أن انتقل إلى السريانيين ثم إلى العرب. وكانت العبارةعن جميع ما يحتوي عليه ذلك العلم باللسان اليوناني ثم صارت باللسان السرياني ثم باللسان العربي. وكان الذين عندهم هذا العلم من اليونانيين يسمونه الحكمة على الإطلاق والحكمة العظمى ويسمون اقتناءها العلم وملكته الفلسفة ويعنون به إيثار الحكمة العظمى ومحبتها ويسمون المقتني لها فيلسوفا ويعنون المحب والمؤثر للحكمة العظمى ) [7]

وبعيدا عن الخط التاريخي العام ، يمكن أن نتوقف قليلا عند الراهن الفلسفي الذي هو إلى نقطة السكون أقرب ذ لك أن جملة المقولات المحددة للأطر المرجعية للخطاب الفلسفي ما تزال قائمة، وحتى ما يروج له على أنه قطيعة أبستمولوجية لم يكن كذلك بالفعل، ورغم جهد جيل ما قبل الاستقلال المخضرم والذي ورث فعلا فلسفيا هزيلا، فقد أتاحت الجزائر المستقلة له إمكانية التأهل حين أقرت فتح فرع للفلسفة بجامعة الجزائر، وتخرجت دفعا ت بعد ذلك، ومع ذلك فمن الصعوبة بمكان القول أننا نملك الآن نخبة فلسفية متينة و دقيقة في فعلها وأهدافها.

لقد كان القرار المنشئ لقسم الفلسفة قرارا إداريا مثل بقية القرارات الأخرى، لم يكن متميزا تميز الفلسفة ذاتها وكنا نوّد لو أنّ ذ لك القرار كان متميزا بمرجعتيه كأن يفتتح قسم للفلسفة بالجامعة الجزائرية. يعد طلبة في تخصص الفلسفة يكون منهم الأساتذة، والأساتذة المبرزون، والأساتذة الباحثون، والأساتذة المندمجون من اقسام أخرى وعلى رأسها العلوم الطبية لما في ذلك من تقاطعات مع البيولوجيات وعلم النفس الوظيفي والبيواتيقاوغير ذلك، ولعل حادثة استنساخ النعجة دللي حجة كافية وإن لم تكن كذلك فلعل ما يجري في علم نفس وظائف الحيوان يكفي لبعض الوقت حين نذكر أدوارا لحيوانات في الحقل الطبي الجراحي والميدان العسكري كما حدث في الحروب الأخيرة، ولكن القرار كان همّه الوحيد تكوينا تعليميا ؛ حتى أن الشهادة

المنوحة وصفت بشهادة ليسانس التعليم في الفلسفة، وكان من ذلك أن عدّت الفلسفة مجرد برنامج تعليمي غايته الوصول إلى تغطية حاجيات التعليم من الأساتذة المتخصصين.

ولم يكن السؤال عن البحث الفلسفي ليطرح يوما ما، لولا أن قلة متنورة استأنست في نفسها أهلية لمواصلة عملية البحث الفلسفي [8] لكان كل هذا النشاط في خبر ليس.

وقد يرى البعض أن الأشقاء في المملكة المغربية قد تمكنّوا من أن يتجاوزوا عقبة التعليمية الفلسفية وخرجوا بكل جدارة واستحقاق إلى فضاء الإبداع الفلسفي [9] ولكن الحقيقة هي أن الإرث هو غير الإرث في بعض جوانبه والتطور التاريخي المجتمعي في العقود الأخيرة هو غيره بين المجتمع و الآخر.

إنّ أمام الجزائر اليوم فرصة تاريخية لإعادة الارتباط بالفعل الفلسفي لأن الإمكانات اليوم هي غيرها بالأمس القريب، وشبابها المتحمس للاشتغال بالفلسفة كثر، وحتى الكتب التي كانت توصف بالمضنون بها على غير أهلها يبدو أنها ستجد فيهم أهلا أوفياء لها.

***الدكتور يوسف زرافة***

# الهوامش

1 – ول ديو رانت، مباهج الفلسفة، ترجمة : أحمد فؤاد الأهواني، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، الكتاب الأول ، 1955، ص: 12.

2– يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الأوربية في العصر الوسيط، دار القلم،بيروت، ص: 19.

3– سر فباليرادا كرشنا وشارل مور، الفكر الفلسفي الهندي ، ترجمة: ندرة اليازجي، دار اليقظة العربية، 1967. ص: 14.

4– هنري أرفوت، بوذا، ترجمة المحامي حسيب نمر، المؤسسة العربيةللدراسات والنشر، بيروت، طبعة أولى ، 1980. ص:40.

5–إميل برهييه ، تاريخ الفلسفة. الفلسفة اليونانية ، ترجمة : جورج طرابيشي ، دار الطليعة ، بيروت ، الطبعة الأولى 1982، ص: 186.

◆◆◆ - يوجه الغزالي اكبر عنايته لإبطال ثلاث نظريات فلسفية من بين نظريات الطبيعة والإلهيات، وهي : نظرية قدم العالم، والقول بأن الله لا يعلم إلا بالكليات، وإنكار بعث الأجساد. ( انظر : ت .ج .دي بور، تاريخ الفلسفة في الإسلام، ترجمة : محمد عبد الهادي أبو ريدة . الدار التونسية للنشر والمؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ص:342. )

6– محمود قاسم، دراسات في الفلسفة الإسلامية، دار المعارف بمصر،القاهرة، طبعة رابعة،1972، ص: 139.

7 –الفارابي،كتاب تحصيل السعادة،ص: 21.

8- نذكر منهم : د. عبد المجيد مزيان /د عبد الله شريط / د. بو عمران الشيخ / د. عبد الرزاق قسوم / د. كربيع النبهاني/ د. الربيع ميمون،وغيرهم.

9- نذكر منهم : د. محمد عابد الجابري/ د. سالم يفوت / د. عبد السلام بن عبد العالي، وغيرهم.